حول أدونيس

كاظم جهاد

عزيزي الدكتور سهيل إدريس

تحية واحتراماً وبعد،

فلكَ وللقرّاء أوجّه هذا الخطاب، لا لأدونيس الذي ارتكب في مقالته «الثقافة، الجريمة، التسلية»، المنشورة في عدد شهر حزيران/يونيو المنصرم من مجلّة **الآداب**، خطأً مزدوجاً ناجماً عن ضعف يكاد يشفّ عنه كلُّ سطر من سطور مقالته المذكورة. فهو، أوّلاً، لا يسمّي بالاسم الصريح خصومَه (وقد يحلو له أن يدعوهم «أعداءه»، بل «قاتليه»، فما عاد من حدود لمجانيّة لغة الأستاذ أدونيس). وثانياً، فهو لا يتورّع عن (...) القذف الجزاف، مثلما عندما يكتب أنّ «هناك مستوى من سوء النيّة عند كلّ من يكتبون ضدّي، ومستوى من الضغينة والتفاهة». اسمح لي، عزيزي الدكتور سهيل إدريس، وليسمح لي القرّاء، بالقول إن رجلاً يُتَّفَه جميعَ من يمارسون بخصوصه حريّةَ النقد المشروعة (ما يدعوه هو بالضديّة) إنّما - وأكتب هذا مع الاعتذار لأدونيس- أقول إنّما... يُتَّفَه نفسه (...).

لكنّ الإساءة الأكبر التي يوجّهها أدونيس لنفسه وكتابته هي تلاعبه بنصوص الآخرين وتقويلهم ما لا يقولون؛ وهي إساءة يتحقّق منها القارئ حالَ مراجعته نصوص الآخرين المعنيّة. فأدونيس، الذي اعتاد تغييبَ الكتّاب، يغيّب القارئ نفسَه بصورة من الصور إذ يتوهّم أنّه عاجز عن التمحيص والمراجعة والمقارنة. وهنا آتي إلى صلب ما قاله أدونيس عن بياننا الذي وزّعناه في الأوساط الثقافيّة الفرنسيّة، أنا والزميلان الناقدان الأستاذ صبحي حديدي والأستاذ صبري حافظ. وتلاحظ، ويلاحظ القرّاءُ، أنّ لغةَ أدونيسَ نفسها تخونه في سعيه إلى تقويل هذه الوثيقة ما لا تقول. فقد كتب أدونيس:

«وهذا الدكتور نفسه نشر مؤخراً بالاشتراك مع شخصين آخرين، سوري وعراقي (...) بياناً باللغة الفرنسيّة، بياناً- كتيّباً، يشكونني فيه للغرب (الصديق؟ العدوّ؟) وكأنّهم يقولون له: "لا يغرنّك أدونيس. إنه نازي (بالحرف الواحد)...»».

تلاحظ في العبارة مقولتين متضاربتَين: «وكأنّهم يقولون له»، و«بالحرف الواحد»: فيمَ يأخذ القارئُ وإلى أيٍّ من الصيغتين المتضاربتين يحتكم؟ هل يعتقد أدونيس أنّنا نبدو «كأنّنا نقول للغرب»، أم يتحمّل مسؤولية القول إنّنا كتبنا عنه ما يورده «بالحرف الواحد»؟ الحقّ إنّ القول بنازيّة أدونيس لا يرد في بياننا البتّة، وإليك حكاية هذا البيان ودواعي إصداره:

تتذكّر ولا شكّ، ويتذكّر القرّاء ما كتبه أدونيس في عدد تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٩٤ من مجلة **الآداب**، في معرض دفاعه عن حضوره ملتقى غرناطة، وبالذات عباراته التي ينسب فيها لنفسه دور المدافع عن صورة الإنسان العربيّ في الغرب:

«فدور المثقف العربيّ في الغرب لا يجوز أن يكون دور انكفاء وعزلة، وإنّما يجب أن يكون هجوماً واختراقاً... خصوصاً أنّ لجانب كبيرٍ من مشكلاتنا جذوره هناك.

«ولعلّنا نعرف التأثير الذي مارسه ويمارسه المثقفون الإعلاميّون اليهود وأنصارهم في العالم الغربيّ، ونعرف الصورة التي عُمِّمت عن العرب والثقافة العربية (...) بحيث يبدو العربيّ متخلّفاً، لا يقيم للإنسان أيّ احترام، ويبدو الإسرائيلي ضحيّة، وسبّاقاً في احترام الإنسان، وفي الديموقراطية والتقدّم.

«ومن هنا حرصي الدائم على حضور المؤتمرات التي أُدعى إليها ويُتاح لي فيها أن أُبرز الوجه الحضاري المضيء، للثقافة العربيّة... وبخاصّة المؤتمرات التي يحضرها أشخاص معادون للعرب وللثقافة العربيّة» (ص ٣-٤ من العدد المذكور).

أناقش هنا جانبين من هذه السطور، قبل أن أتقدّم بالكشف عن تناقض أساسيّ في سلوك أدونيس بين العربيّة والفرنسيّة. أوّلاً، إنّ دفاع أدونيس عن العرب وصورة الإنسان العربيّ في المؤتمرات الغربيّة لهو محض ادّعاء، وأتحدّاه أن يورد لي تصريحاً سابقاً أو نصّاً واحداً له يتضمّن مثل هذا الدفاع. فهو لم يعمل في مثل هذه الملتقيات إلاّ على الترويج

لنفسه ولعمله. وثانياً، فأنا أرى، بدون أية مزايدة إنسانيّة أو شموليّة، ولعلّكم أنت والقرّاء وجميع من أسهموا في مسيرة **الآداب** الرائدة كتابةً أو ترجمةً، ترون أنّ في الخلط بين اليهود بعامّة وإسرائيل إجحافاً، بل وأكاد أقول تمييزاً عنصريّاً. ولو تساوى جميع اليهود في التعامل مع العرب أو الآخرين، بعامّة، وفي خدمة السياسة الاستعمارية والتوسّعية لإسرائيل، لما كنّا عملنا، بكامل التواضع، ولا كانت **الآداب** عملت على تقديم عدد من الكتّاب اليهود الأصل الذين دخلوا بإبداعاتهم صرح الثقافة الكونيّة. ثمّة كتّاب وفلاسفة، من كانط وهيغل وابن ميمون قبلهما، وكافكا وبروست، وصولاً إلى بنيامين ودريدا وتسيلان، ممّن لا يتردّد كاتب واعٍ عن تحليل كتاباتهم أو ترجمتها، وعن اعتبارهم إخوةً لنا في الإنسانيّة. لكنّ هذا التناقض الأدونيسيّ يتفاقم ويزداد حدّة عندما تعرف أنّه، مع صدور قرار اتّحاد الكتّاب العرب في سوريا بفصل أدونيس لحضوره ملتقى غرناطة، كتَبتْ بعض الصحف الفرنسيّة، وبالذات صحيفة **ليبيراسيون** (عدد ٩ شباط/فبراير ١٩٩٥) و**تيليراما** (عدد ٤-١٠ آذار/مارس ١٩٩٥)، أنّ أدونيس قد فُصِلَ من «اتحاد الكتّاب العرب» (تعميم دالّ بحدّ ذاته وسنعود إليه) لأنّه «حضر ملتقى حول السلام في الشرق الأوسط إلى جانب ياسر عرفات وشمعون بيرس، ولأنّه صرّح للمجلّة المصرية (كذا!) **الآداب** بأنّ «اليهود يشكّلون جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الشرق الأوسط». ويضيف الخبر أن «خصوم أدونيس يذهبون إلى حدّ أن يعيبوا عليه كونه ينهل من الخطاب الشعريّ والفلسفيّ لمؤلّفين من أصل يهودي كدريدا وإدمون جابيس وليفيناس، إلخ».

نلاحظ هنا عدّة التباسات نراها مقصودة:

- يقول الخبر: «اتّحاد الكتّاب العرب» ولا يضيف «في سوريا»، وهذا الإجراء (أي الحذف) قامت به جميع الصحف الغربيّة التي أعلمَتْ عن فصل أدونيس، فكأنّها تريد الإيهام بأنّ الكتّاب العرب أجمعوا، عبر اتّحاد شامل وجامع، على تجريد أدونيس من عضويّته في اتّحاد كهذا!

- يذكر الخبر عبارةً واحدة لأدونيس من مقالته المذكورة في **الآداب** التي يدعوها (تمويهاً أو للإيحاء بصدور الخبر عن غير وسط أدونيس نفسه؟) بـ«المصرية». وهو يبتر العبارةَ أصلاً، لأنّ نصّها الكامل كان سيطول أدونيس أمام القرّاء الغربيّين، فقد كان أدونيس قد كتب في **الآداب** حرفيّاً: «...إنّ اليهود جزء من تاريخنا سلباً أم إيجاباً».

- يورد الخبرُ اعتراضاً على نهل أدونيس من الخطاب الشعريّ والفلسفيّ لكتّاب من أصل يهوديّ. لا يورد الخبر (تمويه دالّ) مَنْ هي الجهةُ الصادرُ عنها اللومُ. إنّ أدونيس لا يرجع إلى كتابات المفكّرين والشاعر المذكورين بصورة يمكن معها القول إنّه «ينهل منهم»؛ ولعلّه لم يذكر كلّ واحدٍ منهم أكثرَ من مرّة واحدة في مقالاته. ثمّ إنّ كاتب هذه السطور، الذي ترجمَ لدريدا مئاتِ الصفحات، لم يحْدُثْ أن تلقّى لوماً من هذا القبيل، وما كان سيتأثّر به. وبعد البحث والسؤال وجدنا أنّ لوماً مشابهاً كان قد صدَر عن مجلّة لبنانيّة (**هي الشراع**)، ولا يرد في بيان فصل أدونيس من اتّحاد الكتّاب المذكور، البتّة.

أمام هذا الخلط الذي من شأنه أن يصوِّر العربَ أناساً منغلقين عنصريّين فيشوّه بالتالي صورةَ العرب التي يزعم أدونيس في **الآداب** حرصَه عليها، توجّهنا نحن للصحف المعنيّة بالسؤال عن مصادر هذا التشويش ودواعيه. وهنا أكّدَ القيّمون على الصحف أنّهم على غير كثير دراية بالأمور، وأنّ مصدر هذه «الحقائق» هو... أدونيس، أوصلها لهم عن طريق صحفيّين أصدقاء له، فتأمّلوا!

من هنا جاءت فكرة البيان أو **الكتاب الأبيض** الذي تساءلنا فيه، ودعونا القارئَ الغربيَّ إلى التساؤل، عن معنى هذا الازدواج الأدونيسيّ: فعلى صفحات **الآداب** هو المنافح المستميتُ عن صورة العرب أمام «رجال الإعلام اليهود»، وعلى أعمدة **ليبيراسيون** وسواها هو الملاحَق من قبل العرب كافة واتّحاد كتّاب يزعمون أنّه يشمل جميع الكتّاب العرب، وذلك لا لشيء إلاّ لكون أدونيس «ينهل من الخطاب الشعريّ والفلسفيّ لمؤلّفين من أصل يهوديّ...»!!!

يتساءل أدونيس...، إنْ كنّا توجّهنا للغرب «الصديق؟ [أم] العدوّ؟». هذه التقسيمات إلى عدوّ وصديق هي من صنع أدونيس، عليها يلعب (كما رأينا) ومن تناقضاتها يستفيد. نحن، لا نرى أنّ هناك غرباً واحداً، ثمّ إنّ الغرب لا يعنينا. بل نتوجّه إلى المفكّرين ومحبّي الفكر والأدب، وهؤلاء، أيّاً كانت لغاتهم، هم أصدقاؤنا، ولولا هذا الإيمان لما قامت مشاريعُ إنسانيّة مضيئة أذكر منها، بلا محاباة قطّ، مشروع **الآداب**. ثمّ إنّ لغة أدونيس نفسها تخونه مرّة أخرى بهذا الصدد (وما أكثر ما يخون الكاتبُ الانفعاليُّ نفسَه!) فقد كتب أدونيس بخصوص «الحرب» التي يزعم أنّنا شنناها ضدّه في الغرب (عبر مجرّد بيان): «لقد فشلتْ فشلاً ذريعاً ومخزياً الحربُ التي شُنّتْ عليّ، "حرب الانتحال"، فلا بدّ من شنّ حرب أخرى، ولتكن هذه المرّة، ودفعةً واحدةً، "حرب الاستئصال" (**الآداب**، عدد أيّار وحزيران، سبق ذكره). يزعم أنّنا نمارس ضدّه «حرب استئصال» فهل يجد هو في الغرب أصولَه، حتى... نستأصله من ها هناك؟ ثمّ إنّ «حرب الانتحال» (إن كان النقد حرباً) لم تفشلْ حقّاً. فكِتابُنا بهذا الصدد ينتظر صدور طبعته

الثالثة في بضعة شهور، وقد حيّى فيه العشراتُ من النقّاد عملاً أكاديمياً ونقدياً يقيم حدوداً فاصلة بين التناصّ والمحاكاة والسرقة الخلاّقة والانتحال، ويثبت وقوعَ بعض نصوص أدونيس في «الخانة» الأخيرة. ولا أدري كيف يمكن الحكم بالفشل على كتاب جاب الأمصار ونفدت طبعتان منه في غضون عامين، وثمّة صيغة فرنسيّة منه أحجمنا عن نشرها...؟

أمّا عن «نازيّة أدونيس» فهو كذلك كلام جزاف. كنّا، فحسبُ، تساءلنا في البيان عن دوافع تناقضات أدونيس «وتحولاته» الكثيرة حتى لتكاد تجعلك تتساءل عن «الثابت» عنده. ذكّرنا نضالَه في الحزب القوميّ- السوريّ الاجتماعيّ، المتأثّر، كما يعرف الجميعُ وتشير إليه جميعُ القواميس السياسية العالميّة، بأيديولوجية الحزب الألمانيّ الحامل اسماً مشابهاً. وتساءلنا لا فحسب عن غياب النقد الذاتي لدى أدونيس بصدد هذه الأيديولوجية وذلك الانتماء (حتى في ١٩٩٠، تراه يصرّح للمجلة العربيّة **وقائع** التي صدر منها عدد واحد بباريس: «إنّ الحزب هو الذي علّمنا الانتماء إلى بلد عظيم هو سوريا»!)، بل أيضاً عن حماسته لكلّ ما يَكتب عنه، مهما تناقض مع ما سبق أن تحمّس هو له، من الثورة الإيرانيّة حتى الوهابيّة. ويبالغ أدونيس إذ يدّعي أنّه يتقدّم للوهابيّة بأسئلة «تظهر مدى الخلل فيها»؛ فأسئلته محضُ شكليّة لا تخفي حماسته وانضواءه تحت لواء ما يعرض. لكنّني أترك الخوض في هذا الجانب للصديق الناقد صبحي حديدي، فهو أوّل مَنْ نبّه إلى هذه الظاهرة.

يعزو أدونيس أخيراً لخصومه الزعمَ بأن ما كان يفعله وما يكتبه هو «من أجل الحصول على جائزة نوبل». ويضيف: «إنّني وحيد، ليس ورائي دولة، ولا حزب، ولا طائفة، ولا جماعة، ولا اتحاد» (**الآداب**، عدد أيّار وحزيران، سبق ذكره). وهنا أجزم بأنّ أدونيس ليس وحيداً قطّ، بل قد يتوجّب مدّ القرّاء ذات يوم بجَردٍ مفصّل لنشاطه في باريس، وبتحليل سوسيولوجي – ثقافيّ لأسلوب أدونيس ومن حوله في العمل من أجل ضمان تكريس الإعلام (الذي يتوهّم كثيرون أنّه هو... الأدب) وقبوله، تكريس وقبول يبدو أنّهما صارا شغلَ أدونيس الشاغلَ منذ عقدين من السنوات. لا يهمّنا أمر جائزة نوبل في شيء، وإنّ نيلها أو عدمه لا يضيفان للقراءة النقديّة شيئاً. لكنّ أدونيس، في سعيه وراء الإقرار (والإقرار شعاعٌ داخليّ يستمدّه المبدعُ الحقيقيّ من عمله ومن لغته)، صار يؤلّف هو ومساعدوه ما يُدعى بالدولة «السديميّة»: مجموعةً متشعّبةً، متنوّعةً، ومنتشرةً، تعمل في وضح النهار، وسطَ الواقع الثقافيّ ووراءه، لها استراتيجيّاتُ دولة وحيَلُها وطرقُها الخاصّة في استثمار الجميع وكلّ شيء، والمروق على جميع الأعراف. وبعدَ كلّ شيء، فأدونيس هو صاحب الصرخة المشهورة في إحدى المقاهي الأدبية: «كيف يهاجمني هؤلاء وأنا دولة؟» لكنّ هذا كلّه له بحث آخر.

لك، عزيزي الدكتور سهيل إدريس، وللقرّاء، خالص تحيّاتي ومودّتي.

باريس ١٧ آب ١٩٩٥

(*) تُراجع رسالة الأستاذ حديدي في العدد الماضي من الآداب، تحت باب «مناقشات» (الآداب).

طالب الرفاعي

أُغمضُ روحي عليك

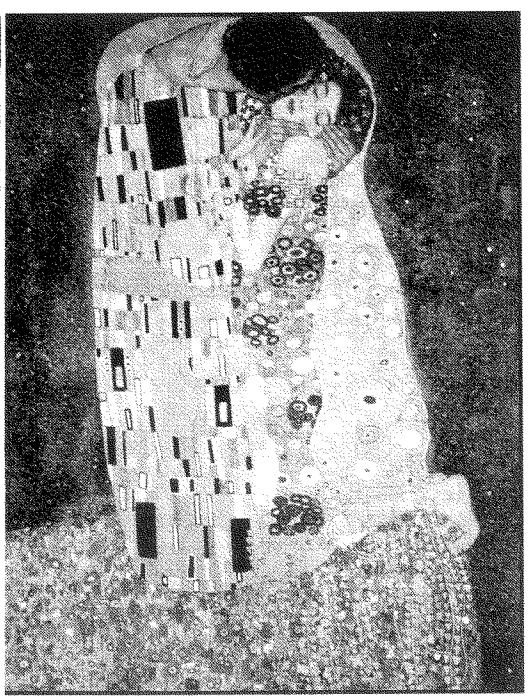

دار الآداب